الرسول والرسالة

الشيخ خالد عدلان بن تونس*[1]

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة 632م، سأل الذين لم يعاصروه السيدة عائشة رضي الله بقولهم : "كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم" فقالت ؟ كان خلقه القرآن".

لقد كان صلى الله عليه وسلم مثال الأخلاق الفاضلة وهو يمثل بحق الانسان الكامل الذي يعتمد كلية على الإرادة الإلهية يدعو ويعيش رسالة التوحيد.

هذه الرسالة هي عنصر توزان وتناغم بين الروحانية والمادية عظمة مآثره ليس لها نظير كان يردد دائما" اللهم احيني مسكينا وامتي مسكينا واحشرني في زمرة المساكين". الكثير من الرجال انبهروا للمسار غير

*. أستاذ وشيخ الزاوية العلاوية بمستغانم.

1. ترجمة ناصر الدين موهوب، باحث وأستاذ بجامعة برج بوعريريج.

العادي لحياة هذا الرسول "إذا كانت عظمة المشروع وضعف الوسائل وكثرة النتائج هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الرجل فمن يتجرأ أن يقارن غنسانيا رجلا من عظماء رجالات التاريخ المعاصر مع محمد ؟" هكذا لاحظ لامارتين.

نتساءل بماذا كان يتميز ؟ ولماذا تجربته هي قدوة لنا ؟ ماذا قدم لرجال عصره وماذا بقي من تعاليمه التي يمكن أن تكون اليوم مصدرا للإلهام بالنسبة لرجال القرن الواحد والعشرين ؟

الحقيقة المؤكدة هي أن صدى كلماته وآثاره التي بناها في واحد وعشرين سنة (611–632) ما يزالان مستمرين إلى اليوم وسواء لقيت المعارضة أو القبول فإنها لم تكن مهملة أبدا.

قوة الكلام وقوة الفكر وحكمته البالغة تدعونا كلّها الى رؤية تصالح بين الانسان والكون، لقد كان يقبل على حساب الحقائق التي كانت عنده أن يخالفه الوحي في العديد من المرات.

فمثلا عندما سأله سلمان الفارسي(ض) الذي كان منبهرا ببعد بعض الرهبان عن مصيرهم يوم البعيث فقال له إنهم في النار هذا الجواب أحدث ارتباكا لدى سلمان ولكن نزل الوحي ليقول ﴿**إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَالذينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[1]

1. سورة البقرة، الآية 62.

الرسول الكريم لم يؤسس بالتفصيل لنظام سياسي أو لنظرية الدولة، لقد ترك للرجال مهمّة إقامة المشروع المناسب لحياتهم اليومية مع الأخذ بمبدأ الشورى.

لقد سجل الرسول صلى الله عليه وسلم موقفا سياسيا رائعا في السنة الأولى من الهجرة إلى المدينة المنورة عندما كتب نصّا سمّي بعهد المدينة، أسّس فيه للحياة بين طوائف المجتمع المدني : الوحدة والتساوي بينهم جميعا في الحقوق والواجبات أليس هو القائل "الناس سواسية كأسنان المشط"

لقد ذهب أبعد من ذلك، عندما سمح لوفد نجران من المسيحيين بإقامة صلواتهم بالمسجد النبوي الشريف إنه من خلال هذا العمل المثالي طبّق ما كان يقوله من أن كل النبياء إخوة : لهم أب واحد ولكن أمهاتهم متعدّدة.

إنه يوضح بالرغم من اختلاف العبادات بين الديانات أن الرسالة واحدة وأن الايمان واحد بربّ واحد. أكثر من ذلك إنه يؤكد أن أصل البشر كلهم واحد ولا توجد أفضل من أخرى" كلّكم من آدم وآدم من تراب" لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى"

هذه بعض الملامح وهناك الكثير منها التي تبيّن شخصية الرسول ص والرسالة التي جاءنا بها. إنه رجل تربوي من الطراز الأول مفعم بالإنسانية دعا كل الناس، مسلمين وغير مسلمين إلى الارتقاء بطبائعهم وتصرفاتهم

الى المستوى الأعلى الذي يمكن أن يحققه الإنسان لهذا شجّع على طلب العلم فقال "اطلبوا العلم من المهد الى اللحد" و"اطلبوا العلم ولو بالصّين" ذلك أن العلم والمعرفة في نظره أهم من دم الشهيد.

أولى أهمية قصوى للتربية من خلال نظرة بيداغوجية مجددة إنها منهج تربوي حيّ، "لاعبوهم سبعا وأدّبوهم سبعا وصاحبوهم سبعا.."

إنّ هذا المنهج المبني على مراحل بسبع سنوات لكل مرحلة يسمح للصّبي بأ ينمو في جوّ يحترم خصوصيات كل مرحلة من مراحل النمو

في المرحلة الاولى : يترك الصبي يتمتع بحريته فيتذوق اللعب الصبياني دون معوّقات قد تؤثر على تكوين شخصيته.

في الرحلة الثانية : يتم وضع إطار مناسب لتربية صارمة أما المرحلة الثالثة فتسمح له بالمشاركة في تكوين رجولة مستعدة لمواجهة الحياة، إنه في هذه المرحلة مراهق محترم من طرف الغير ويحترم الآخرين، لأنه وقتئذ ليس ابن أو بنت والديه ولكنه صديقهما.

لقد دعا هذا الرسول الكريم إلى تعليم الرياضة للكبار من أجل المحافظة على الجسم السليم، أما الصغار فقد دعا الى تعليمهم "الرماية والسباحة وركوب الخيل" بل لقد نظم وشارك في مسابقات للجمال والمهاري.

إننا بعيدون كل البعد عن تلك الصورة الكاريكاتورية لرجل منطوي على نفسه، معزول عن العالم متوجّه للتعبّد إنه في الحق رجل الطّريق

الوسط، الدّاعي إلى التوازن بين متطلبات الحياة البدنية والروحية لهذا الغرض كانت نصائحه المتعلقة بالنظافة والتّداوي أساسا للطب في الاسلام وللمارسة الطّبية، التي ساهمت من خلال التطوّر العلمي المذهل للحضارة الاسلامية بوضع أسس الطب الحديث.

أما بالنسبة لمكانة المرأة ونظرته إليها، فنحن في هذا المقام بعيدون عن الأحكام المسبقة التي تعرضت لها المرأة فيما بعد في المجتمعات الاسلامة. فمن خلاله يتمتّع النساء بنفس الحقوق والواجبات التي يتمتّع بها الرجال.

في خطبة حجّة الوداع أكّد على هذه المسألة تأكيدا واضحا. لا ننسى أنه في تلك الفترة كانت المرأة عبارة عن ملك خاص بين يدي الرجل و لم تكن لها أية حماية قانونية. لقد ذهب إلى تحديد عدد الزوجات وإعطائها تعويضا ماديا في حالة الطلاق وسمح بإقامة عقد هو بمثابة اتفاقية عند الزواج و لم يرد في سيرته العطرة أن رفع صوته أو يده على امرأة. رغم أن النساء كنّ في ذلك الوقت مع الرّجال في المسجد يتلقون نفس التعاليم إلا أنه خصص لهن يوما خاصا في الأسبوع للحديث معهنّ في المشاكل التي تخصهّن.

الكثير من المؤرخين أكدّوا أن التعليم في زمن النبي كان واجبا على الرجل والمرأة والكثير من سلاسل رواة الحديث تنتهي عند إحدى زوجاته او عند صحابية عاصرت النّبي. إنه دليل قاطع على التعليم المشترك ألم يقل "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء" يقصد السيدة عائشة (ض).

إنه بالنظر الى وضعية المرأة في المجتمع المعاصر المسلم مازال لدينا مشوار طويل للإقتداء بالرسول ﷺ إنني أتساءل في هذا المقام أيّ تعاليم الرسول نتبع ؟ كيف يمكننا في الوقت الحاضر ومن خلال هذا الكمّ الهائل من الميراث الذي وصلنا عبر الأجيال أن نميّز حقيقة بين تعاليمه صلى الله عليه وسلم وتلك التي وضعها آخرون ؟

لقد قام بنو أمية والعباسيون بوضع أحاديث تصب في مصالحم فاستعلموا رجال الدين من أجل الاستيلاء على السلطة وكسب الشرعية.

هذه القضية ومنذ وقت طويل تركت رواة الحديث يفكرون كثرا في هذه المسألة الهامة، لهذا أقاموا نظاما صارما يبدأ من الحديث الصحيح الذي رواه الكثير من المحدثين وبسلاسل متعددة موثوق بها إلى الحديث الضعيف الذي حوله شك حقيقي.

هذا يشجعنا على الدعوة الى إعادة بعث علوم الحديث تحت ظلال منهج علمي، يساعده في ذلك وسائل العصر التي بين أيدينا ومثلما كان الرسول ﷺ نفسه يشجع العلم لنأخذ الأسوة الحسنة منه ذلك أنه ليس بالجهل ولا بالتقليد السّطحي يمكن أن نحل هذه المسألة.

حان الوقت للهروب من الفكر الانغلاقي الذي عطّل تفكير الأمة الاسلامية بغلقه باب الاجتهاد مع إضفاء طابع القدسية على العهد المدني يجب أن ننظر إلى التاريخ نظرة موضوعية تسمح لنا بإعادة قراءة المرحلة الرائعة لحياة عين الرحمة سيدنا محمد ﷺ.

لنأخذ مثلا الحديث الذي يتكلم عن الجهاد حيث يقول الرسول ﷺ "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل ما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد النّفس" أجمع رواة الحديث على صحته ولكن ماذا بقي اليوم من معنى الجهاد الأكبر ؟

إن كلمة الجهاد ليس لها من مفهوم سوى الصّراع أو الحرب عند غالبية المسلمين وغير المسلمين هذا يؤدي بنا الى التدبر وإعادة التفكير فيما قاله صلى الله عليه وسلم بأن الجهاد الأصغر باستعمال السّلاح يعتبر ثانويا بالنظر الى الجهاد الأكبر الذي ننتصر فيه على أنفسنا ضد شهواتنا وعلى الخصوص ضدّ الشرور التي نسببها للآخرين باعتبارها من تعاليم الرسول ﷺ حسبما نعتقد.

عندما نقول كلمة "جهاد" فإنها لا تحمل بالضرورة معنى القتال أو الحرب المسلّحة يمكننا أن نصارع من أجل هدف مثالي عن فكرة معيّنة بالعلم أو عن طريق المؤسسات والقوانين وخصوصا عن طريق سلوك قويم ناتج عن وعي متطوّر يمكن اكتسابه بالجهاد الاكبر ذلك أنه إذا كانت المجاهدة ضرورية ومطلوبة لدى المسلمين فذلك لأن الغاية هي الارتقاء إلى النّور وليس الاستسلام للأهواء والغرائز الحيوانية التي تسكنُنا، "لقد يعثني الله خادما كريما و لم يبعثني ظالما جبّارا" أو كما قال صلى الله عليه وسلّم، يبيّن هذا الحديث الخطوط التي تُظهر وتقدس هذا الرسول : الخدمة والكرم، أما الأحاديث التي تُظهر التكبّر فهي أحاديث موضوعة من طرف أناس لتبرير تصرّفاهم.

إنّ المثل الأعلى الذي يدعونا إليه سيدنا محمد ﷺ واضح وصريح : إنّه يدعونا إلى الوحدة التي تربط الأطراف ببعضها، ولكن عوض الرجوع إلى هذه الوحدة المؤسِّسة فضّلنا التّأسيس لمُثُلنا ومعتقداتنا بالنظر إلى تصوّرنا المرتبط بأفكارنا المسبقة للعالم والكون. إن أوهامنا تنشأ وتتغذى من الحوار المستمر الذي نقيمه مع الثنائية الوجودية : الخير والشر، الحياة والموت، الخالق والمخلوقات. والمحصلة، هي شقاوة تتحوّل مع الزمن إلى جحيم محقّق.

روح الإنسان المسجونة تتمزّق بين عالم "تقليدي" يتطلع إلى ماضٍ مثالي وعالَم "عصري" يتمثل في عطش لا متناهي للذّهب وللقوة. ولهذا، شعورا بذنب المعصية الأولى، لا يتوقّف الإنسان عن الإحساس بالألم.

إنّ المنهج المحمدي يعطينا تصورا آخر قائما على الاختيار الحرّ والإرادي : بناء ذواتنا على الهوية الأصلية للإنسان. حقيقة، لا يمكن لأيّ أحد أن يتنصّل من الثنائية التي تطبعه من عبقرية الخير أو عبقرية الشر اللتان تتجاذبانه. لا يمكنه التّنكر أو الاختفاء وراء سلوك مصطنع. لا يمكن لأي صانع أو ساحر أو آلهة مهما أوتيت من قوة أن تُنقِذ الإنسان.

فقط الحق، الحق الحقيقي، هذا القبس من النّور المطبوع في الخلية الأولى التي انطلق منها وجودنا يذكّرنا في كلّ لحظة وحين بالحقيقة الأولى التي تسكنُنا : إنّه الوجود الإلهي فينا حيث نُعتبَرُ الوعاء والملجأ المقدّس.

إنّ السلوك الذي يدعونا إليه المنهج المحمدي يتمثّل إذن، وقبل كلّ شيء، في التحرر من الشّكوك والحقائق المزيّفة، ومن الدّين العاطفي القائم على الماضي فقط الذي يشترط خلاص الروح بالنّعيم المقيم أو بجهنّم خالدون، مع أنّ النبي ﷺ يقول في هذا الموضوع "**إنّ أهل الجنّة يتالّمون كما يتألّم أهل النار**" أو كما قال.

ماذا بقي للإنسان من حقائقه الموروثة وأوهامه المتلاشية ؟ وإلى أين يتّجه من أجل الوصول إلى السّلام وإلى الطّمأنينة ؟.

إنّ التعليم المحمّدي "طريق الوسط" القائم على الأمل والرّحمة يدعونا إلى الانتباه وإلى الجهاد الأكبر، إلى المجاهدة ضد الخوف والموت.

ألم يقل عليه الصلاة والسلام "**موتوا قبل أن تموتوا**" ؟ إنّها دعوة إلى الانبعاث من جديد كما يبعث الطائر من الرّماد، ولا يتمّ ذلك إلاّ بإتباع طريق التّحقيق.